Journal of the Faculty of Arts (JFA)

Volume 84 | Issue 1 Article 5

1-1-2024

The Relationship Of Scholars In The Hijaz With The Local And Central Authorities During The Mamluk era 648-923AH/ 1250-1517AD

NAWAL DAFER ALQAHTANI
al-ata-no@hotmail.com

Follow this and additional works at: https://jfa.cu.edu.eg/journal

Recommended Citation
ALQAHTANI, NAWAL DAFER (2024) "The Relationship Of Scholars In The Hijaz With The Local And Central Authorities During The Mamluk era 648-923AH/ 1250-1517AD," *Journal of the Faculty of Arts (JFA)*: Vol. 84: Iss. 1, Article 5.
DOI: 10.21608/jarts.2023.208368.1357
Available at: https://jfa.cu.edu.eg/journal/vol84/iss1/5

This Original Study is brought to you for free and open access by Journal of the Faculty of Arts (JFA). It has been accepted for inclusion in Journal of the Faculty of Arts (JFA) by an authorized editor of Journal of the Faculty of Arts (JFA).

علاقة العلماء في الحجاز بالسلطتين المحلية والمركزية خلال العصر المملوكي ٦٤٨-٩٢٣هـ /١٢٥٠-١٥١٧[*]

الباحثة: نوال ظافر حسن القحطاني
طالبة دكتوراه – قسم التاريخ – كلية العلوم الانسانية والاجتماعية – جامعة الملك سعود

د/ سامي سعد المخيزيم
أستاذ مشارك – قسم التاريخ – كلية العلوم الانسانية والاجتماعية – جامعة الملك سعود

الملخص:
لعب العلماء دورًا كبيراً في حياة المجتمعات منذ وقت مبكرٍ وذلك لعلمهم المقترن بالعمل، فالتاريخ يشهد لهم هذا الدور ولا يُغيب أثرهم في مختلف جوانب الحياة العامة ولاسيما الحياة الدينية والعلمية حيث كان لهم مركزية في التوجيه والإرشاد، وتزامنًا مع دورهم العلمي والديني أصبح لهم دورًا سياسيًا فكانت لأرائهم ونصائحهم دور في توجيه سياسة الدولة، كما لم يغب عن الأدوار التي لعبوها في المجتمع المملوكي دورهم في الحياة الاقتصادية .

هذه المكانة التي اكتسبها العلماء من المجتمع لم تكن مقتصرة عليهم، حيث امتدت إلى السلطتين الحاكمة والمحلية، فرفعوا من شأنهم وأكرموهم وأحسنوا إليهم، مما أسفر عن ذلك تكون رابطة ود واحترام مع الطبقة الحاكمة، فأخذوا برأيهم و أشركوهم في أمورهم السياسية، ومع ذلك لم تكن وظائف العلماء ونشاطهم الاقتصادي يخول لهم أن يصارعوا للوصول للسلطة، بل كان من وظيفتهم و مركزهم الاقتصادي أن يحملوا السياسة على مقتضى الشرع، وإصلاح ما يمكن إصلاحه بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لإقرار الأمن ونشر السلام .

وعلى الرغم من ذلك فإن العلاقة بين العلماء والسلطتين لم تكن على وتيره واحدة، فقد مرت

[*]**مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة المجلد (٨٤) العدد (١) يناير ٢٠٢٤.**

بمنعرجات عدة ما بين الاختلاف والتعاون وهذا شأن أي علاقة، ولكن يظل أن العلماء في تلك الفترة حافظوا على استقلاليتهم الدينية والعلمية من خلال ما قاموا به من دور فعال في الحياة العامة، ومع ذلك فإن دائرة العلماء لم تكن تتمحور حول الدين والعلم بل اتسعت لتشمل السياسة والاقتصاد والاجتماع.

Abstract

Scientists have played a major role in the life of societies since an early age, due to their knowledge associated with work. History attests to this role and their impact is not absent in the various aspects of public life, especially the religious and scientific life, where they had a central role in guidance and guidance, and coinciding with their scientific and religious role, they had a political role. Their opinions and advice played a role in guiding state policy, and the roles they played in Mamluk society were not lost on their role in economic life.

This status that scholars gained from society was not limited to them, as it extended to the ruling and local authorities, so they raised their status, honored them, and treated them kindly, which resulted in a bond of friendship and respect with the ruling class, so they took their opinion and involved them in their political affairs. The jobs of scholars and their economic activity entitle them to struggle to reach power, but rather it was their job and their economic position to carry politics according to the requirements of the Sharia, and reform what can be reformed by enjoining good and forbidding evil to establish security and spread peace.

In spite of that, the relationship between the scholars and the two authorities was not at the same pace, as it went through several turns between disagreement and cooperation, and this is like any relationship, but it is believed that the scholars in that period maintained their religious and scientific independence through the effective role they played in public life. However, the circle of scholars was not centered around religion and science, but rather expanded to include politics, economics and society.

منهج البحث:

اعتمدت الدراسة على المنهج الوصفي التحليلي القائم على جمع المادة العلمية الخاصة بموضوع البحث من مصادرها المتنوعة، ثم تحليلها.

الدراسات السابقة :

بعد الاطلاع على قواعد البيانات ومراكز البحوث فإنه لم يظهر لي دراسة علمية تناولت الموضوع على هذا الوجه، ولم يكن هناك عنوان صريح أو ضمني تناول موضوع علاقة العلماء في الحجاز بالسلطتين المحلية والمركزية خلال العصر المملوكي حتى الآن، ورغم ذلك فإنه يمكننا الاستفادة من بعض الدراسات التي بحثت في بعض الجوانب المفيدة لموضوع الدراسة وهي كالآتي:

- سارة شقلوف، **أثر المشارقة في الحياة العلمية والاجتماعية** في بلاد الحجاز خلال العصر المملوكي، رسالة ماجستير، جامعة الفيوم،
- عفاف الشهري، **المجاورون الشاميون وأثرهم في الحياة العلمية في مكة والمدينة خلال العصرين الأيوبي والمملوكي** (رسالة ماجستير: جامعة الملك خالد، ١٤٣٦-١٤٣٧هـ/٢٠١٥-٢٠١٦م)
- نوال الشريف، **الأوضاع الاجتماعية** ومهنهم وحرفهم وآثارهم على الحياة العامة خلال العصر المملوكي (رسالة ماجستير : جامعة أم القرى، ١٤٤١هـ/٢٠٢٠م)

تساؤلات البحث :

لقد وجدت في نفسي ميلا لبحث هذا الموضوع، لما وجدته من معلومات جيده تنتظر البحث والدراسة، وكلي أمل أن جوابا لأسئلة ترسم معالم الموضوع وتفضي إلى نتائج علمية، فالمقال يثير مشاكل وتساؤلات منها :

- ما علاقة العلماء في الحجاز بالسلطتين المحلية والمركزية ؟ هل كانت علاقة جيدة ؟ أم كان يعتريها التوتر و الانقلاب ؟ وهل كانت تلك العلاقة مستمرة طيلة العصر المملوكي ؟ أم أنها اختلفت في العصر الأول عنها

في العصر الثاني من حكم الدولة المملوكية ؟

- كيف كانت العلاقات الاجتماعية والاقتصادية والعلمية والدينية بين العلماء والسلطتين المحلية والمركزية ؟

ساهم العلماء بدور كبير في تحديد النظرية الشرعية والسياسية للدولة المملوكية، فالدولة منذ قيامها حرصت على إحياء الخلافة العباسية في مصر سنة ٦٦١هـ/١٢٦٣م من قبل الظاهر بيبرس؛ وذلك لسببين: إضفاء الشرعية لحكمه، وأن تكون القاهرة مقرًا للخلافة بدلًا من بغداد، وتأكيدًا لأحقية المماليك في حكم العالم الإسلامي كان لزامًا عليهم أن يصبغوا الدولة بالصبغة الشرعية خصوصًا وأن الخليفة العباسي كان مجرد رمز ديني ليس له دور سوى الحضور مع الأمراء والأعيان في المناسبات الدينية، ولذلك حرص المماليك على توطيد علاقتهم مع فقهاء الدولة وعلمائها، إما من خلال الفتاوى التي يصدرونها أثناء الصراعات السياسية، أو المصادرات المالية أو المكوس والضرائب التي تفرض وتزداد بين الحين والآخر، أو من خلال التقرب منهم بإعطائهم الوجاهة والمكانة(١).

لقد كان المماليك بحاجة إلى دعامة قوية يستندون عليها في بداية حكمهم، باعتبار أنهم خلفوا السلاطين الأيوبيين، لذا كان عليهم أن يستعينوا بدعامة ترضي الناس عنهم، فكان العلماء هم تلك الدعامة التي لها تأثير قوي في الجانب الديني والسياسي آنذاك(٢)، فصبغوا الدولة بالصبغة الدينية المتمثلة بالعلماء، فنجاحهم في تثبيت حكمهم واستمراريته مرهون بذلك.

وهناك سبب آخر قد نعتبره ثانويًا بالنسبة لما ذكر، مع الأخذ في الحسبان أنه لا يمكننا أن نعمم ذلك على جميع السلاطين والحكام، وهو أن تبجيل السلاطين والأكابر للعلماء هو مداراة لهم خوفًا من أقلامهم، فكثير منهم اشتغل بالكتابة والتأليف، فكانوا يجوبون البلدان ويكتبونه ما يشاهدونه وما يسمعونه، ومن هؤلاء المؤرخ المقريزي (ت٨٤٥هـ/١٤٤١م)(٣) الذي برر البلادي سبب تبجيل الأكابر له، فجعله: "مدارة له خوفًا من قلمه أو لحسن

مذاكرته"[٤]، حدا ذلك ببعض الحكام ليحرصوا على ترك أثر حسن في سيرهم، كما أن التاريخ مليء بمحن العلماء مع الطبقة السياسية التي كانت تحكم في أزمنتهم، وغالبًا ما تنتهي بفوز العالم، وإغلاق التاريخ أبوابه على أولئك الحكام المستبدين. كما سعى بعض العلماء الكتاب إلى كسب رضا الحكام، فألفوا كتبًا للسلاطين لينالوا رضاهم، ومن هؤلاء على سبيل المثال القاضي محي الدين عبدالظاهر (ت٦٩٢هـ/١٢٩٢م)[٥] الذي ألف كتابًا للظاهر بيبرس سماه: الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر.

وعلى ذلك يمكن أن نصنف طبيعة العلاقات مع العلماء والسلطتين المركزية الحاكمة والمحلية إلى علاقة سياسية، واجتماعية، وتجارية، وعلمية، كالتالي:

أولًا: علاقة سياسية:

ارتبط العلماء خلال العصر المملوكي بعلاقات سياسية مع السلطتين الحاكمة والمحلية، وذلك بموجب وظائفهم التي تحتم عليهم ذلك، كالقضاة والخطباء والفقهاء، إلى جانب النظام العام للدولة الذي يؤمن بتأثير هذه الطبقة من المجتمع على الحياة السياسية، سيما النظام القضائي، فالدولة تعتبره جزءًا من النظام والسلطة السياسية، ويظهر ذلك في مصاحبة العلماء للأشراف أثناء سفرهم، كما حدث مع القاضي محمد بن عبدالوهاب بن محمد المغربي (ت٩١٨هـ/١٥١٢م)[٦] الذي صحب الشريف أبا نمي ابن صاحب مكة الشريف بركات الحسني أثناء سفره إلى مصر ومقابلته لسلطانها[٧].

وقد يصحبونهم أثناء دعوتهم من السلطة الحاكمة بمصر، حيث إن السلطة المصرية الحاكمة قد تُرّغب وتحرص على حضور القضاة مع الشريف -خصوصًا القاضي الشافعي- إذا كان في هذه الدعوة قرار تعيين الشريف في حكم منطقة ما، كما حدث عندما قام السلطان الأشرف قايتباي سنة ٨٧٧هـ/١٤٧٢م بدعوة الشريف بركات بن محمد بن بركات، والقاضي الشافعي بمكة البرهان بن ظهيرة، لإشراك بركات مع أبيه في حكم مكة[٨].

وفي حال وصول مرسوم التعيين إلى مقر الشريف فإنه يتحتم على القضاة والخطباء وعدد من الفقهاء الحضور لسماع قراءة مرسوم تعيين الشريف[٩]، أو تعيين سلطان جديد[١٠]، أو تلبيه لمطلب معين[١١]، أو شكر الشريف عند نجاح الحج[١٢]، وهذه المشاركة السياسية التي قاموا بها ما هي إلا لمكانتهم الاجتماعية والدينية في الدولة .

وقد تخطى دور العلماء وعلاقتهم بالسلطتين ذلك فكانوا واجهة يستقبلون الأمراء والسفراء والوفود[١٣]، فوقفوا جنبًا إلى جنب مع الطبقة العليا من أمراء ووزراء، وجمعوا بذلك بين المكانة الدينية والسياسية، بمشاركاتهم لهذه البروتوكولات .

بل إن السلطة أشركت هؤلاء العلماء في بعض المناصب السياسية كدليل على عمق العلاقة بينهم، ومن ذلك ما حصل لعمر بن أحمد بن محمد النفطي (ت٨٨١هـ/١٤٤٦م)[١٤] الذي عين وكيلًا لكل من أمير المدينة سليمان بن عزير (٨٤٢هـ-٨٤٦هـ/١٤٣٨- ١٤٤٢م)[١٥]، وأمير الينبوع صخرة بن هجار، فكان يسافر لهما في ذلك[١٦].

كما أشركوا العلماء في الوزارات كالفقيه علي بن عبدالرحمن بن مشكور القرشي (ت٧٤٤هـ/١٣٤٣م) والذي ولي وزارة أمير المدينة[١٧]، وكذلك الإمام عفيف الدين عبدالسلام بن محمد بن مزروع البصري الذي عرض عليه الأمير عز الدين شيحه أن يتولى وزارته لأنه كان بمنزلة "الأب والوزير" لكنه رفضه، ولم يمنعه ذلك من السفر في مهمات كان يرسله فيها إلى مصر والشام والعراق[١٨]، فكان سفيرًا له في مهماته، وكذلك القاضي أبو البركات بن ظهيرة الذي كان يسافر لأجل صاحب مكة من أجل حوائج كان يقضيها له سنة ٨١٠هـ/١٤٠٧م[١٩].

ومن مظاهر هذه العلاقة أنهم يستشيرون العلماء ويدخلونهم في أمورهم ثقة بهم، خصوصًا لو التمس الشريف سعة علم العالم واطلاعه، وكان معتبرًا له مكانة عند أهل البلاد عامتهم وخاصتهم، كالعالم أحمد بن علي بن

محمد الفاسي (ت٨١٩هـ/١٤١٦م)[٢٠] حيث أدخله الشريف حسن بن عجلان في أموره[٢١]، ومحمد بن محمد بن عبدالمنعم القاهري (ت ٨٥٧هـ/١٤٥٣م)[٢٢] كان جقمق –كما ذكر السخاوي– "منقادًا معه إلى الغاية حتى إنه كان يأمر بما لا يستطيع أحد مراجعته فلا يزال يتلطف... إلى أن يصغى لكلامه ويرجع إليه"[٢٣]، فهو يقبل شفاعته ووصايته، وذلك لما كان عليه من الدين والمداومة على فعل الخير.

وعلى ذلك يمكننا القول إن الأزمات السياسية تكشف مآرب الحكام والمجتمعات باختلاف الزمان والمكان، والعلماء في ظل تلك الظروف كانوا كالمنارات يهتدى بها، ووصلة للشعوب، لهذا يتبادر إلينا تساؤل عن موقف العلماء في الصراعات والأزمات السياسية: هل لازموا الحياد؟، أم إنهم شاركوا فيها بطرق عدة؟، وهل السلطتين المحلية والمركزية أجبرتهم على المشاركة؟.

حتمت علاقة العلماء بالسلطتين المحلية والمركزية ووصولهم إلى هذه المكانة السياسية السامية أن يكونوا معهم في كل ما يخص الدولة خصوصًا في الأزمات السياسية التي تعصف بالحجاز، وذلك للعلاقة السياسية التي نشأت بينهم، فجاءت مشاركة العلماء سياسيًا من خلال قصائد المدح والإشادة بأمجادهم، أو التهنئة بتولي الحكم، ومن هذه القصائد على سبيل المثال قصيدة كتبها الإمام قطب الدين أبو الخير محمد المكي في الشريف علي بن حسن بن عجلان سنة ٨٤٦هـ/١٤٤٢م عندما تولى إمرة مكة مقدمتها:

ثغور الهنا لما قدمت بواسم سرورًا وكل الكائنات مباسيم[٢٤]

وقصيدة كتبها الفقيه محمد بن عبدالعزيز بن أحمد النويري تهنئة للشريف بركات بن محمد بن بركات بتوليه إمرة مكة سنة ٩٠٣هـ/١٤٩٨م، كما أن الفقهاء والقضاة بهذه المناسبة صاحبوا قاضي القضاة الشافعي للسلام على بركات وأخيه هزاع وللتهنئة[٢٥].

وحتى عند عودة الأشراف للإمرة بعد عزلهم كان العلماء والشعراء

يستقبلونهم بالقصائد والأشعار تهنئة بعودتهم[٢٦]، كما قد تكتب فيهم القصائد تضامنًا وتأييدًا للأشراف ضد ما يحصل لهم من السلطة الحاكمة، من ذلك ما أنشده الفقيه محي الدين عبدالقادر بن عبدالرحمن بن الحسين المكي يذكر ما فعله الأمير الكبير بالشريف بركات رافضًا ما جرى له[٢٧]، ومنه ما قام به الأمير تمراز البكتمري[٢٨] سنة ٨٤٦هـ/١٤٤٢م عندما قبض على الشريفين علي وإبراهيم ابنا حسن بن عجلان، فكتب الإمام والأديب قطب الدين أبو الخير بن عبد القوي المكي[٢٩] قصيدة في ذلك[٣٠].

وتتذبذب تلك العلاقة السياسية بين الحين والآخر، خصوصًا من جانب أصحاب السلطة، حيث كان للوضع الأمني، وشخصية الشريف، وأطماعه دور في ذلك، فعند استقرار الوضع الأمني، قد يشرك الأشراف العلماء فرحتهم بالانتصار، فيكتبون لهم ويبشرونهم بالنصر والغنيمة، حبًا لهم ورغبة في تشارك هذه الفرحة، كما حصل مع الشريف محمد بن بركات (٨٥٩-٩٠٣هـ/١٤٥٤-١٤٩٧م)[٣١] عندما انتصر في إحدى معاركه على عرب بني لام، فكتب لقاضي قضاة الشافعية بمكة في ذلك الوقت بأنه "غنم منهم شيئًا كثيرًا لم يغنمه قط هو ولا آباؤه"[٣٢].

وأما في حال اضطراب الوضع في الحجاز، أو عزل الشريف القائم، فإن البعض منهم قد لا يتردد في إقحام العلماء في صراعه، إما بالقبض عليهم أو نهبهم أو إهانتهم، دون خوف ولا رادع، كما حدث مع ثابت بن نعير بن هبة بن جماز أمير المدينة سنة ٨٢٩هـ/١٤٢٦م عندما قبض على خدامها وقضاتها ونهبهم لما بلغه عزله عن إمرة المدينة[٣٣]، وهو مؤشر على غياب الحس الديني، وقلة تقدير لحرمة المكان المقدس، وإلا لما تعرض لأهل الدين وعامة الناس بالنهب والسرقة.

ومن الحوادث الدالة على ذلك ما حصل سنة ٨١١هـ/١٤٠٨م بعد موت أمير المدينة ثابت بن نعير بن منصور، حيث أرسل حسن بن عجلان إلى الشريف عجلان بن نعير بن منصور يستدعيه لمكة ليفوض له إمرة المدينة

فثار جماز بن هبة، واستدعى خدام المسجد النبوي فامتنعوا، فدخل المسجد وطلب من الطواشية خدام المسجد إعطاءه حاصل القبة مقابل تسعة آلاف، وطلب من القاضي أبو بكر بن الحسين بن عمر المراغي[٣٤] مفاتيح الحاصل، ونظرًا لامتناعهم عن تلبية مراده لخروجه عن الطاعة، فقد تعرض القاضي المراغي للإهانة، وشيخ الخدام للضرب[٣٥].

ومنها ما حدث سنة ٧٥٧هـ/١٣٥٦م عندما هرب ثقبة بعد دخول عجلان مكة مع الركب المصري بعد أن كان حاكمًا بها، ولإيمانه بخروج السلطة من يده، ولطمعه في الحصول على المال فإنه لم يتردد في نهب قافلة الفقيه البركاني القادمة من اليمن إلى مكة، على الرغم من أن أمير الركب المصري طلب منه عدم التعرض لها، لكن ثقبة لم يجبه مع أنه أمنه، فأخذ ما بها من أموال وبضائع، ضاربًا بطلب الأمير ومكانة الفقيه الدينية عرض الحائط[٣٦].

وما وقع عام ٧٩٨هـ/١٣٩٦م عندما امتنع القاضي وجيه الدين عبد الرحمن بن علي بن جميع من البقاء بجدة هو وبعض التجار اليمنيين، لأنهم أتوا جدة أيام الحرب، فخشوا على أنفسهم وعدلوا عنها إلى ينبع[٣٧]؛ ليقينهم أن الحرب التي كانت بين الأشراف لا تستثني أحدًا، فكانت تعصف بمن تجده أمامها عالمًا أو فقيهًا أو محدثًا أو مقرئًا أو تاجرًا أو غيرهم.

وكذلك ما حدث سنة ٧٣٧هـ/١٣٣٧م عندما تسلط مبارك ابن الشريف عطيفة على المجاورين وأخذ أموالهم وأموال التجار مع أن الشريف رميثة لم يسمح بذلك حيث خرج لمحاربته، ويعطينا هذا صورة عن طبيعة العلاقة مع العلماء المجاورين في ظل وجود أطماع مالية في نفوس بعض الأشراف[٣٨]، وكذلك ما قام به علي بن مبارك بن رميثة مع المجاورين بمكة عندما نكل بهم وتعرض لهم بالأذى، وقد اعتقل بقلعة الجبل لكن السلطان المصري أطلق سراحه وبعث له بخلعة وكتاب ليتولى إمرة مكة شرط أن يحسن إلى أهلها ويعدل بينهم[٣٩].

وقد استمر هذا الوضع حتى في أواخر الدولة المملوكية، ففي فتنة الجازاني سنة ٩٠٨هـ/١٥٠٢م لم يراع حرمة المكان وأهل الدين وحتى أبرياء مكة، حيث هجم على أهل مكة ومجاوريها، فنهب ديارهم وقتل منهم نحو ٧٠٠ إنسان، حتى هرب غالب أهل مكة، وممن هرب المجاور أحمد بن عبد الرحيم بن قاضي القضاة بدر الدين العيني (ت٩٠٩هـ/١٥٠٣م)، حيث فر مع أولاده إلى المدينة المنورة هربًا من بطش الشريف(٤٠).

إن ما حصل مع الشريف علي بن مبارك –كما مر– لا يعطينا تصورًا قطعيًا عن موقف السلطة الحاكمة من العلماء المجاورين، حيث وجدت مبادرات من السلطة الحاكمة لنجدة المجاورين والعلماء من تسلط الأشراف وطغيانهم، من ذلك ما حدث سنة ٧١٣هـ/١٣١٣م عندما اتصل المجاورون والحجاج بالسلطان المملوكي لإنقاذهم من أعمال حميضة ورميثة ابنا أبي نمي، فأرسل لهم السلطان جيشًا، وهرب حميضة، وأقام الجيش بمكة نحو شهرين لإقرار الأمن(٤١)، وما حدث سنة ٧١٩هـ/١٣١٩م عندما طلب المجاورون والتجار من السلطان المملوكي الناصر محمد قلاوون لما كان بمكة حاجًا أن يترك عسكرًا، يحميهم من غارات حميضة بن أبي نمي، فجرد لهم جيشًا أقام بمكة(٤٢).

وإذا استتب الوضع في الحجاز فإن الأمن والعدل يعم أهل المنطقة بأكملها ومنهم علماؤها، فتصبح العلاقة بين العلماء والحكام علاقة ود واحترام وتقدير، كما حدث عام ٧٤٦هـ/١٣٤٥م لما أعطي عجلان إمرة مكة من قبل السلطان الكامل شعبان، "فنشر السيد عجلان بمكة من العدل الأمان للحاج والمجاورين الذي لم يعهد مثله في طول الزمان، ورد المظالم والمسروقات، وبطل القتل والنهب"(٤٣).

وقد كان لنزاهة الشريف أو طمعه دور في تلك العلاقة المتبادلة، خصوصًا إذا طغت أطماعه المالية على مبادئه، فبعض الأشراف لم يترددوا في القيام بأعمال السلب والنهب والتعدي كوسيلة لتحقيق المكاسب المادية مهما

كانت السبل، وأيًا وقعت عليه، ومن أمثلة ذلك ما حدث عندما وقعت منافرة بين العلاّمة محمد بن محمد بن سعيد الصاغاني والشريف جماز بن منصور أمير المدينة، وقد كان العلامة محمد من العلماء الذين تولوا الإفتاء والتدريس مع تجارته، حيث تنكر جماز له لما طلب مالًا منه وامتنع، فسجنه جماز[٤٤]، وما حدث عندما اتهم الشريف ثابت بن جماز الشيخ عفيف الدين بن مزروع (ت ٧٦٥هـ/١٣٦٤م) بأن عنده مالًا للطواشي مختار البغدادي عندما توفي بعد أن كان وصيًا على أولاد عفيف الدين، وحتى عندما حلف الشيخ للشريف ثابت بعدم صحة ذلك لم يصدق وسجنه[٤٥].

وما حدث كذلك عندما تعرض الشريف عجلان سنة ٧٥٣هـ/١٣٥٢م لسفينة كانت قادمة من اليمن وفيها عبد للقاضي شهاب الدين الطبري قاضي مكة، وتجارة لجماعة من أهل مكة، فأخذ ما فيها، ونتيجة لفعلته فقد أزيل عن إمرتها لتعديه على أموال أهلها[٤٦].

وقد يتعرض العالم للقتل لو اتهم بمال من قبل الأشراف، وذلك ما وقع مع الإمام أبي عبدالله محمد الزكوي الخطيب والإمام بالمدينة، حيث قتله الأشراف القيامي لاتهامهم بأنه أخذ أموالًا سنة ٨٨٢هـ/١٤٧٧م[٤٧].

ومع وجود هذه الأمثلة التي تعطينا نبذة عن طبيعة العلاقة مع العلماء إذا تعلق الأمر بالمال، إلا أن هذه النظرة لا يمكننا أن نعممها على جميع الأشراف، فقد وجد منهم من تضامن مع العلماء، وسعى في رد حقوقهم المسلوبة، كالذي قام به الشريف خنافر بن وبير[٤٨] صاحب ينبع عندما علم أن جماعة ابن مجان[٤٩] نهبوا أحمال ركب الحجازيين، ومعهم جماعة من تجار الإسكندرية، وفي الركب القاضي كمال الدين بن ظهيرة والسيد علي بن بركات، فتوجهوا إلى الشريف محمد بن بركات، ووصل خبرهم لصاحب ينبع فأرسل عليهم من واجههم، ورد لهم حوائجهم[٥٠].

ويصل الحال عند بعض الاشراف بإعفاء العلماء التجار من العشور تقديرًا، واعتقادًا في أصحاب الدين، كما حصل مع الشيخ محمد بن مسعود بن

صالح الزواوي الذي أعفاه صاحب مكة من عشور جدة لاعتقاده في والده[٥١].

ثانيًا: علاقة اجتماعية

ارتبط كل من العلماء والسلطتين المحلية والحاكمة بعلاقات اجتماعية مختلفة، غلب عليها الطابع الحسن، فكانت علاقة مستقرة قائمة على الود والاحترام، دالة على قوة أواصر العلاقة والمكانة التي يتمتع بها هؤلاء العلماء، فعند قدوم السلاطين للحج كان العلماء –وبالأخص القضاة– يستقبلون السلاطين عند دخولهم مكة، فيلقون عليهم السلام، ويقدون لهم الأطعمة أحيانًا تحية وترحيبًا بمقدمهم، فعندما حج السلطان الأشرف قايتباي سنة ٨٨٤هـ/١٤٧٩م استقبله شريف مكة في يومه الأول ومد له الأسمطة صباحًا ومساء، وفي اليوم الثاني مد القاضي الشافعي برهان الدين بن ظهيرة أيضًا بعد شريف مكة جمال الدين محمد بن بركات سماطًا صباحًا ومساءً بعد أن استقبله عند مقدمه هو والشريف المكي[٥٢]، ومما يدل على متانة العلاقة وقوة الثقة بين السلطان والقاضي أن جعله في المكانة بعد شريف مكة.

بل تعمقت العلاقة بينهم وأصبحت قوية عندما ارتبط العلماء بهم بعلاقة مصاهرة، ومع ذلك فإن المصادر التي بين أيدينا لم تمدنا إلا بمثال واحد لشريف مكة، ومثالين لصاحبي اليمن، وسنتحدث عنه في موضعه، أما ما يخص شريف مكة فقد تزوج أحمد بن علي بن محمد الفاسي (ت٨١٩هـ/١٤١٦م) من ابنة الشريف حسن بن عجلان، وكان معتبرًا وله مكانة عند ولاة مكة، فهم يدخلونه في أمورهم ويستشيرونه، إلى أن وصل الأمر بالشريف أن زوجه ابنته أم هانئ[٥٣].

كما قد شارك الأشراف فرحة العلماء بحضور مناسبات الزواج، كمشاركة صاحب مكة لعقد قران القاضي جمال الدين أبي السعود بن برهان الدين بن ظهيرة على ابنه عم أبيه سنة ٨٧٥هـ/١٤٧٠م[٥٤]، وفي سنة ٨٩٦هـ/١٤٩١م حضر الشريف محمد وولده بركات عقد قران المحيوي عبدالقادر بن الشيخ نجم الدين بن ظهيرة، كما حضر هذا الشريف عقد قران

عبد المعطي بن القاضي فخر الدين أبي بكر(٥٥)، وما حدث سنة ٩١٩هـ/١٥١٣م عندما حضر الشريف بركات بن محمد بن بركات عقد قران القاضي تاج الدين ابن قاضي القضاة جمال الدين أبي السعود بن ظهيرة(٥٦).

ولم يكتف أصحاب السلطة بالحضور بل شاركوا العلماء في جهاز أبنائهم وبناتهم، كالسلطان قايتباي الذي قدم الهدايا والخدم والعطايا للإمام إبراهيم بن عبدالرحمن بن محمد الكركي (د.ت)، وقد قيل إنه بلغت عطية السلطان له في جهاز ابنته ألف دينار، تعبيرًا عن عمق العلاقة وصدق المشاعر في تقدير هذه الفئة من المجتمع(٥٧).

كما حضر العلماء حفلات الزواج التي أقامها أصحاب السلطة، فعندما أقيم زواج محرم بن الشريف هزاع أرسل للقاضي المالكي ولولديه فحضر ومعه عدد من العلماء والمشايخ(٥٨).

إلى جانب ذلك فقد شارك السلاطين والأمراء أحزان العلماء وأتراحهم، وظهر ذلك في حضور جنائز العلماء، ومنهم أمير مكة الشريف عنان بن مغامس الذي حضر جنازة العالم المغربي موسى بن علي بن عبدالصمد المراكشي (ت٧٨٩هـ/١٣٨٧م)(٥٩).

ومن مظاهر قوة العلاقة بين الأشراف والعلماء –سيَّما القضاة– أن يوصوا بتولي غسلهم بعد مماتهم، كما فعل الشريف عجلان عندما أوصى بأن يتولى القاضي الشافعي غسله(٦٠). وكان العلماء في المقابل يقدمون التعازي للأشراف، فعندما مات ولد السيد بركات بن محمد بن بركات (علي) قدم عليه القضاة والخطيب والتجار لتعزيته(٦١). وقد يعودونهم في مرضهم، فالشريف محمد بن بركات عندما مرض مرضه الذي مات منه سنة ٩٠٣هـ/١٤٩٨م قدم القاضي الشافعي لزيارته(٦٢)، وحتى بعد مماته حضر جمع من العلماء بمن فيهم الفقهاء والقضاة(٦٣).

كما شارك العلماء السلاطين أحزانهم، ظهر ذلك في نظم قصائد العزاء لهم، فعندما توفي الابن الثاني للشريف بركات بن محمد بن بركات

(محمد) سنة ٩١٥هـ/١٥٠٩م رثاه الشيخ أبو بكر الحضرمي المكي[٦٤].

بل تخطى الأمر ذلك وقدم السلاطين المساعدات المالية للمحتاجين من العلماء، كما قضى السلطان الظاهر جقمق دين القاضي سعد بن محمد بن عبدالوهاب الزرندي (ت٨٦٨هـ/١٤٦٤م)[٦٥]، بعد أن قدم عليه وشكا له أن دينه البالغ ألف دينار[٦٦].

ولم يقتصر الأمر على ذلك، بل قدم السلاطين المساعدة والعون لمن احتاج من عامة الناس بفضل علاقة العلماء بهم، حيث كانوا وسطاء عند كثير من السلاطين والأمراء والشرفاء، فقدموا المساعدات وقضوا حوائج الناس، للمحبة التي كانت بينهم وبين العلماء، ومن هؤلاء الفقيه والمؤذن عمر بن الأعمى (ت٧٣٤هـ/١٣٣٤م) الذي "كثرت مساعدته للإخوان عند الشرفاء والأمراء وقضاء الحوائج عندهم"، كما قربه الأشراف وعظموه وقبلوا شفاعته، ودافع عن حقوق وحاجات كثير من العامة والمجاورين[٦٧].

ولكونهم وسطاء بين العامة وأصحاب السلطة، وللصلاحية الموكلة لهم بسبب علاقتهم بهؤلاء من ناحية، ولمكانتهم وعظم قدرهم من ناحية أخرى، فقد وقفوا في وجه من يعتدى على العامة في أموالهم أو حقوقهم حتى لو كانوا أصحاب السلطة أنفسهم، كالقاضي نور الدين علي بن العز الزرندي (ت٧٧٢هـ/١٣٧٠هـ) الذي وقف في وجه طفيل سنة ٧٤٦هـ/١٣٤٥م، ومنعه من أخذ تمر البيمارستان، حفظًا لحقوق أهله، ورعاية للفقراء، وسدًا لباب قد يجر خلفه ويلات ومفسدة عظيمة[٦٨].

وقد وجد عدد من السلاطين والأشراف قدموا خدمات ومساعدات سواء مالية أو عينية شملوا بها العامة والخاصة سيما العلماء، تشريفًا لمكانتهم، ورغبة في الأجر والثواب، تمثل ذلك بالهبات والصدقات والأوقاف، وكانت تصل إلى الحجاز مع مقدم السلاطين للحج، أو عند تعرض الحجاز لأزمات اقتصادية كموجات الغلاء أو الجفاف التي يعز فيها القوت، وحرصًا منهم على إبقاء العلاقة الحسنة مع عامة الناس والعلماء، ورغبتهم في الأجر، فقد حرصوا أن

يظهروا بمظهر أهل الإحسان(٦٩).

لقد أدت هذه المساعدات والأعطيات التي تصل لأفراد المجتمع بطريقة غير منتظمة دورها في تحقيق التكافل بالمجتمع، فتركت عظيم الأثر في توطيد العلاقات من ناحية، ورفع مستوى المعيشة للأفراد من ناحية أخرى، كما ساهمت الأوقاف المنتظمة التي خصصها بعض السلاطين للحرمين والمجتمع الحجازي دورًا كبيرًا في تحقيق الأهداف المنشودة، فذهب صرفها على المنشآت التعليمية والاجتماعية والصحية، وشمل ذلك العلماء الذين كانوا أكثر الفئات إنعامًا مقارنة ببقية المجتمع(٧٠).

ويبدو هذا الإنعام واضحًا وجليًا من خلال الصدقات التي قام بها السلاطين المماليك، حيث كانوا يقدمون الصدقات كثيرًا خلال حجاتهم، بل إن الحجاز اعتاد على هذه الصدقات التي يعم نفعها الأشراف والعلماء سيما القضاة والخطباء، ومن هذه الصدقات:

صدقه الظاهر بيرس أثناء حجه سنة ٦٦٧هـ/١٢٦٩م عندما عم بصدقته وخص المجاورين بها، إضافة إلى كسوة فرقها على أهل الحرم(٧١)، وصدقة السلطان الناصر محمد قلاوون عندما حج سنة ٧١٢هـ/١٣١٢م، حيث فرق على المجاورين بمن فيهم العلماء الدنانير والدراهم، بل إنه في حجته أراد أن يحاسب ابن صاحب المدينة كبيش الذي تعدى على المجاورين بعد إنكارهم له دخوله للحرم المدني راكبًا(٧٢)، وكذلك صدقة الناصر عندما حج سنة ٧١٩هـ/١٣١٩م تصدق للحرمين "فأغنى الفقراء وسد حاجتهم وأحسن إليهم وإلى المنقطعين"(٧٣)، وصدقته في حجته الثالثة سنة ٧٣٢هـ/١٣٣٢م التي عم بها أهل الحرم(٧٤).

أما المعونات العينية المتمثلة في الأقوات فإن أشهرها صدقة السلطان المملوكي المؤيد سنة ٨١٧هـ/١٤١٤م وهي قمح فرقه على أهل الحرم(٧٥)، وصدقة الأشرف برسباي الذي بعث أثناء حجه مركبًا محملًا بالقمح وفرقه على القضاة والفقهاء والخدام والأشراف والأيتام(٧٦)، وصدقة السلطان قايتباي لأهل

المدينة والقادمين إليها، حيث وزع ما يكفيهم من البر والدشيشة والخبز(٧٧).

وعندما حج السلطان الأشرف شعبان أقام وقفًا حدد أوجه صرف ريعه على توفير الرعاية الصحية لمجتمعي مكة والمدينة على حد سواء، وشمل فيه العلماء والمجاورين، وألزم الواقف بتوفير الأطباء والموظفين بالبيمارستان لهم دون تمييز بين المرضى، كما خصص مبلغ خمسة عشر ألفًا ومائتي درهم لتكون ثمن شراء ستة وسبعين أردبًا من القمح وطحنه(٧٨).

ثالثًا: علاقة دينية:

كان السلاطين المماليك حريصين على توطيد علاقتهم بالعلماء باعتبارهم الدعامة الدينية للمجتمع، فأصبح الاهتمام بهم أمرًا حتميًا؛ لدورهم الكبير في إجراء تحولات وتغييرات دينية ثم سياسية، بل إن أشراف الحجاز حرصوا على هذه العلاقة لتيقنهم بمكانتهم عند السلطان المملوكي، ولعلمهم بأن تعرضهم للعلماء بأذى قد يتسبب بعزلهم أو قتلهم، ويمكننا القول إن العلاقة في معظمها كانت طردية؛ إحسان الأشراف للعلماء هو بسبب إحسان السلاطين لهم، ويتضح ذلك بما ذكره الفاسي عن قاضي مكة وخطيبها محمد بن أحمد بن عبدالعزيز النويري (ت٧٨٦هـ/١٣٨٤م)، يقول: "كان أمير مكة عجلان وابنه يراعيانه كثيرًا، لتحققهما أن له عند المصريين قدرًا خطيرًا، وكان يراعيهما فيما ليس فيه ملامة، لأنهما سألاه في الخطبة بمكة لصاحب العراق شيخ أويسي لما وصلهما منه هدية سنية، ففعل ذلك وقتًا، ثم ترك ذلك حتى الآن"(٧٩).

وكذلك ما حدث لشريف المدينة جماز بن منصور عندما كان في الروضة فوقع في حق الخليفتين أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب رضي الله عنهما، وكان الإمام محمد بن محمد بن سعيد الصغاني (ت٧٨٠هـ/١٣٧٨م) مجتمعًا به في الروضة فكفره، ولما أنكر الشريف ما وصف به خشي الإمام الصغاني على نفسه وفر إلى ينبع مستجيرًا بأميرها أبي الغيث، فأجاره وأوصله إلى القاهرة، فأخبر سلطان مصر بما حصل، فرسم السلطان قتله في موسم الحج لما حضر خدمة المحمل(٨٠).

ما سبق من حالات منوطة بشكاية العالم إلى السلطان المملوكي، أما لو لم يشتكِ فإن الأمر قد لا يتجاوز البغضاء والكراهية، كما حصل مع القاضي بالمدينة الحسن بن أحمد بن محمد القيسي والشريف طفيل عندما تشدد القيسي على الروافض، ولم يكن أمام أمير المدينة إلا أن كرهه ومقته، إلى أن رحل القيسي إلى القاهرة واستقر بها دون أن يخبر السلطة أو يشتكي إليها من أمير المدينة(٨١).

ويمكننا القول إن علاقة السلاطين المماليك الدينية بالعلماء جيدة، لذا حرصوا على استمرار مذهب أهل السنة، وحاربوا كل من تعرض لهم أو حاول أن يقمع مذهبهم سيما الأشراف، فقربوا إليهم العلماء من قضاة وفقهاء لحاجتهم إلى فتواهم لتكون أفعالهم على مقتضى الشرع، وحرصوا على إبقاء علاقة الود قائمة بينهم وبين العلماء، خاصة لو تعلق الأمر بالإساءة إلى مذهب أهل السنة، كما حرص السلاطين أنفسهم على جعل تصرفاتهم موافقة لمقتضى أهل العلم بالحصول على فتوى يحتمون بها من المجتمع بصفة عامة، ومن حكام الدول الإسلامية بشكل خاص، لذا توطدت تلك العلاقة الدينية، وأصبح العلماء –خاصة القضاة– هم سواعد السلطان فيما يخص ذلك(٨٢).

حرص السلاطين المماليك وكذلك الأشراف على تعيين العلماء في المناصب الدينية، ليتقربوا منهم وينهلوا من معارفهم وعلومهم، فولوهم كما ذكرنا سابقًا كثيرًا من الوظائف والمناصب الدينية لثقتهم بهم، فكان منهم القضاة والأئمة والخطباء والمحتسبون، بل إن السلاطين عندما اتخذوا من بعضهم أئمة لهم جعلوهم رفقاء لهم في حلهم وترحالهم(٨٣).

امتدت هذه العلاقة الدينية، وتولى بعض السلاطين تجهيز العلماء للحج، كما حدث مع نزيل الحجاز محمد بن أبي بكر بن أحمد المغربي (د.ت) الذي دخل ينبع والتقى بشريفها معزى، فتكفل بتجهيزه للحج، ثم لما عاد أصبح مقرئ أولاده(٨٤).

والسلطان جقمق عندما تولى تجهيز محمد بن محمد بن عبدالمنعم

القاهري (ت٨٥٧هـ/١٤٥٣م) للحج مرتين في سنة ٨٤٩هـ/١٤٤٥م و ٨٥٣هـ/١٤٤٩م، ولم يقم السلطان بذلك إلا لمكانة العالم، فكان يسمع له وينقاد لمطلبه، حتى إذا أصر السلطان على رأي فإنه لا يزال يتلطف به، ثم يرجع عن رأيه خاصة فيما يتعلق بقضايا الفقهاء(٨٥).

وكان العلماء حريصين على مقابلة السلاطين المماليك عند قدومهم للحج، حيث يتعين عليهم وعلى الشريف بمكة الخروج لاستقبال السلطان المملوكي والترحيب به، وتقديم ما يمكن تقديمه كنوع من الحفاوة، ومن ذلك لما قدم السلطان قايتباي للحج عام ٨٨٤هـ/١٤٧٩م، خرج لاستقباله شريف مكة محمد بن بركات وصحبه القاضي برهان الدين إبراهيم بن علي بن ظهيرة، بل إن القاضي ابن ظهيره صحبه في حجه ولازمه، حيث كان يرشده ويلقنه الأدعية والأذكار(٨٦).

ومن ذلك استقبال شريف مكة وقاضيها شهاب الدين أحمد بن محمد الطبري للسلطان الناصر محمد قلاوون عندما حج سنة ٧٣٢هـ/١٣٣٢م، حيث أهدى القاضي للسلطان تمرًا وكعكًا في أطباق الخوص، فأعجب هذا الفعل السلطان وقال: "هذا قاض فقير"(٨٧).

وإن لم يكن العالم بمكة فإنه يحرص على لقاء السلطان إن أمكنه ذلك، كما حدث عندما حج السلطان المصري سنة ٨٧٨هـ/١٤٧٣م فخرج شاهين الجمالي نائب جدة ومعه القاضي إبراهيم بن ظهيرة وجماعته وابن أمير مكة للتوجه إلى مكة ومقابلة السلطان، وبصحبتهم مبلغ من المال، ولم يكن من السلطان إلا أن أكرمهم وأجلهم وخصص لهم في كل يوم ما يكفيهم من الأسمطة(٨٨).

ويمكن القول إنه من الواجب على العالم لقيا السلطان مع الشريف، ولا يحق له التغيب، وإن تغيب فإنه يحاسب، فالسلطان قايتباي عندما حج سنة ٨٨٤هـ/١٤٧٩م لم يستقبله الإمام محب الدين الطبري لانشغاله بأداء صلاة العصر، وصادف مرور السلطان عندما كان يطوف بالبيت تسليم الإمام

الطبري من الصلاة، فقال الوشاة للسلطان بأن الإمام قصد من ذلك التكبر، وأنه أخر صلاة العصر عن وقتها لذلك، وبعد أن أنهى السلطان طوافة قصد مدرسته، فدخل عليه الإمام الطبري، فوقف له السلطان لحظة دخوله، وتعجب الوشاة من ذلك، فسلم عليه السلطان، وتحدث معه بما قاله الوشاة، فقال له الطبري: سلمت عليك في أشرف مكان بالمسجد الحرام ولم يلحظ أحد الحاضرين بهذا الشرف، كما أن مرور السلطان صادف تحللي من الصلاة بالسلام، ويستحب للمصلي إذا سلم أن يقصد بسلامه من على يمينه ويساره من ملائكة ومؤمنين إنس وجن، ومولانا دخل في ذلك، وكنت أصلي بالناس العصر في أول الوقت، حتى أتى رجل وأنا أستعد للصلاة وطلب مني تأخيرها حتى يتسنى له ولغيره أداء صلاة الجماعة، علمًا بأنهم يأتون من أقصى غرب مكة، فداومت على تأخيرها إلى هذا الوقت، فما كان من السلطان إلا أن أظهر احترامه وتقديره ومكافأته بأن أسند إليه عددًا من الوظائف(٨٩).

بل بلغ من مكانة هؤلاء وعلاقتهم الدينية أنهم أعطوا الصلاحية لإنكار المنكرات حتى ولو كان ذلك مع السلاطين، وكان بعضهم يعظون السلاطين ويغلظون في وعظهم، ومع ذلك كان السلاطين يقبلون ذلك ويعظمونهم(٩٠).

وقد يتعرض العالم للإهانة أو للقتل من قبل الشريف إذا تعرض أو تكلم بالروافض، كما وقع لأبي العباس الفاسي عندما تكلم مع بعض العامة وقال إن الحسين بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهما لم يعقب، فرفع إلى أمير المدينة طفيل بن منصور بن جماز الحسيني بما قال، فأنكر كلامه وأراد قتله، فتكلم عنده من توسط فيه إلى أن نفي عن المدينة(٩١).

وما حدث عندما قام زبيري بن قيس بن ثابت الحسيني(٩٢) بضرب شمس الدين الأزهري حتى الموت لأنه كان جالسًا في الروضة النبوية وداس بعض الروافض سجادته فقال: يا رافضي، فاستغاث الرافضي عند الأمير فأمر بأخذه من المسجد، وضرب حتى مات(٩٣).

رابعًا: علاقة تجارية:

من صورة العلاقة التجارية بين السلاطين والحكام وبين العلماء تقديم أصحاب السلطة المساعدة المالية لبعض العلماء ممن جمع بين التجارة ووظيفته، فأقرضوهم الأموال لتشغيلها بالتجارة، سواء كانت تجارة داخلية أم خارجية، مثل ما قدمه السلطان المملوكي عام ٧٢٠هـ/١٣٢٠م للقاضي والتاجر محيي الدين يحيى بن عبداللطيف التكريتي (د.ت) حيث أعطاه مائة ألف دينار ليتاجر بها، إضافة الى خمسين ألف دينار كتبها له ليتاجر بها في عدن، حتى إنه عندما نزل الى عدن "تصرف فيها تصرف المالك"(٩٤).

وتقديرًا لمكانة العلماء وعلمهم فقد ينالهم العفو من المكوس والعشور التي تؤخذ على عروض التجارة القادمة إلى موانئ الحجاز، وربما يحصلون على بعض الميزات التجارية كما نقل لنا ناصر خسرو الرحالة، وهو وإن كان في زمن يسبق العصر المملوكي لكنه يعطينا تصورًا عامًا عن طبيعة العلاقة التجارية بين العلماء وأمراء الحجاز، حيث أعفاه أمير جدة من دفع المكوس، وذلك يبدو واضحًا من الرسالة التي أرسلها إلى أمير مكة عندما قال: "إن ناصر رجل من العلماء ولا يجب أن يؤخذ منه أي رسم جمركي"(٩٥).

وتتضح الصورة أكثر عندما أعفي محمد بن مسعود بن صالح الزواوي (ت ٨٥٩هـ/١٤٥٥م) من العشور بجدة، لأن صاحب مكة كان يعتقد في والده مسعود الزواوي، ويجله ويُقدر مكانته الدينية(٩٦)، أي أنه حصل على معاملة ضريبية تفضيلية بالإضافة إلى توسيع الفرصة التجارية له بأن حصل على هذا الإعفاء(٩٧).

وعندما يتاجر العلماء وتتعرض قوافلهم للنهب والسرقة من بعض أشراف الحجاز فإن بعض السلاطين يبادر في إصلاح ما أفسده هؤلاء، إما بإرجاع ما تم أخذه، أو تقديم الاعتذار لهم، ومن ذلك ما قام به محمد بن عجلان سنة ٧٧٣هـ/١٣٧١م حيث نهب قافلة متجهة من مكة إلى المدينة، وكان فيها القاضي المكي أبو الفضل النويري، فنهب جمالها، ولما بلغ الخبر

عجلان بن رميثة أتاهم بعد أن وصلوا إلى المدينة، واعتذر لهم، ووعدهم برد جمالهم، أو بتعويضهم بمال(٩٨).

ويبدو أن اعتذار عجلان لم يكن من فراغ لأنه في عام ٧٥٣هـ/١٣٥٢م تعرض لجلبة وصلت من اليمن فيها عبد القاضي شهاب الدين الطبري وجماعة من أهل مكة، ولفعله هذا عُزل من إمرته(٩٩)، وقد يعطينا هذان المثالان تصورًا عامًا عن طبيعة العلاقة التجارية التي كانت بين العلماء وأصحاب السلطة، ويتبين أنها علاقة جيدة، وأنها مرتبطة ببقاء الشريف في منصبه، إذ إن التعدي على الأموال العامة وخاصة بوجود القضاة قد يعرض الشريف لأمور قد لا تحمد عقباها، سواء من منافسيه من الأشراف الذين كانوا يطمعون بالحصول على سمعة من السلطة الحاكمة، أو حتى من السلطة الحاكمة التي يهمها استقرار الأوضاع الاقتصادية بالمنطقة، وسلامة تجارتها.

ونتيجة لهذه الثقة ولمكانة بعض العلماء من أصحاب الوظائف الدينية كالقضاة الذين تحتم عليهم وظيفتهم الإشراف والإحاطة ببعض الأمور المالية في الدولة، فقد كان السلاطين يوكلون القضاة للإشراف على بيع أملاكهم في بعض المناطق الحجازية، فالسلطان قايتباي عندما أراد أن يبيع أمواله في وادي مر، أرسل قاضي القضاة النجمي بن يعقوب المكي(١٠٠)، وعددًا من القضاة لبيعها بحضورهم(١٠١).

خامسًا: العلاقة العلمية:

لا شك أن العلماء هم سادة الحياة العلمية في كل زمان ومكان، فنمو الحياة العلمية مرتبط بمشاركة العلماء فيها، فهم الأساس واللبنة الأولى لبناء أي صرح علمي في أي دولة، لذا شاركوا المجتمع الحجازي في تقديم كل ما هو نافع للنهوض بالحياة العلمية، فنشروا العلوم والمعارف في مختلف المؤسسات التعليمية وتكونت العلاقة بين العلماء والمجتمع على أوسع نطاقها من خلال هذه المنصات التعليمية.

وتعتبر العلاقة العلمية من أقوى العلاقات التي تربط العلماء بأصحاب السلطة بالحجاز أو بمصر، حيث حرص أصحاب السلطة على تلقي العلوم من أيدهم، فأقاموا لهم المجالس وأسسوا لهم المدارس والأربطة، مكملين ما بدأه أسلافهم في ذلك، ففتحوا أبواب العلم للعلماء وطلبة العلم، وشجعوهم على التوافد حتى أصبحت تلك المؤسسات دورًا علمية لها دورها في المجتمع المكي بفضل اهتمام أصحاب السلطة بها(١٠٢).

ولقد تضافرت جهود السلاطين والأمراء والأعيان والتجار في هذه النهضة العلمية حتى كان لها أسما أثر في تطور هذه العلاقة، فأنشأ أصحاب السلطة المجالس العلمية التي تعدّ ندوات لكبار العلماء، ومن أشهر هذه المجالس العلمية بمكة مجلس الأمير حسن بن عجلان وابنه بركات وحفيده محمد، وقد امتازوا جميعًا باهتمامهم بالعلم والعلماء فرعوهم أشد رعاية، حتى إن أمير مكة الشريف حسن بن عجلان قرب أحمد بن جار الله بن زائد السنبسي (ت٨٢٧هـ/١٤٢٤م) منه، وحظي من ذلك بامتلاك دور وسقايا كثيرة جراء هذه العلاقة(١٠٣).

كما اهتم السلاطين ببناء المدارس، وتسابقوا على تأسيسها كالمدرسة التي أنشأها السلطان قايتباي سنة ٨٨٢هـ/١٤٧٧م بمكة، ودرس فيها محمد بن محمد بن أحمد الصاغاني (ت٨٨٥هـ/١٤٨٠م)(١٠٤)، والمدرسة التي أنشأها السلطان برقوق، وعين فيها عبادة بن علي بن صالح الزرندي (ت٨٤٦هـ/١٤٤٢م) مدرس المالكية(١٠٥)، والمدرسة التي أنشأها السلطان برسباي، وكانت في البداية قاصرة على الحنفية بأمر من واقفها، غير أنه سمح فيها بعد ذلك بتدريس المالكية، وأشهر من عين فيها للتدريس عبادة بن علي الزرندي (ت٨٤٦هـ/١٤٤٢م) السابق الذكر(١٠٦)، وما قام به السلطان الغوري عندما أنشأ مدرسة ورباطًا للمجاورين والمنقطعين(١٠٧).

كما قد يعين السلاطين العلماء كنظار في المدارس التي أنشأها، مثل تعيين الأشرف قايتباي لعالم المدينة ومفتيها علي بن عبدالله بن أحمد

السمهودي ناظرًا في مدرسته التي أنشأها، إضافة إلى الإشراف على مصارفها[١٠٨].

بل بلغ من اهتمام السلاطين والأمراء بالعلماء أن خصصوا أوقافًا لهذه المدارس، وجعلوا لها موردًا ماليًا بهدف الصرف عليها، كما فعله الأشرف شعبان عندما خصص أوقافًا لمدرسي المذاهب الأربعة[١٠٩].

وجنبا إلى جنب فقد ساهم أمراء المماليك في هذه العلاقة فأسسوا دروسًا خاصة، ومنها درس بشير الجمدار الناصري أحد أمراء المماليك بمصر، وقد تولى الدرس به عدد من العلماء، خاصة القضاة، منهم القاضي جمال الدين محمد بن عبدالله بن ظهيرة القرشي (ت٨١٧هـ/١٤١٤م)[١١٠]، ودرس الأمير يلبغا الخاصكي[١١١] مدبر الدولة بمصر، حيث قرر فيه أحد العلماء الذين اشتهروا بعلمهم ومكانتهم، وهو القاضي أحمد بن محمد بن محمد الصاغاني (ت٨٢٥هـ/١٤٢٢م)[١١٢]، كما درس فيه من قبله والده محمد بن محمد بن سعيد الصاغاني (ت٨٧٠هـ/١٤٦٦م)[١١٣]، ودرس الأمير أرغون الدودار النائب بمصر[١١٤] الذي قرر في مدرسته التي أنشائها بمكة[١١٥].

الخاتمة

الحمد لله على عونه وتوفيقه ونعمه وتيسيره، حمدًا يليق بجلاله، والصلاة والسلام على من لا نبي بعده .

فبفضل من الله حاولت جاهدةً أن ألم موضوع علاقة العلماء في الحجاز بالسلطتين المحلية والمركزية، واستطعت في نهاية المقال أن استخلص بعض النتائج وهي كالتالي:

- كانت العلاقة بين العلماء والسلطتين المركزية والمحلية متذبذبة شأنها شأن أي علاقة، والتي كانت غالبا مرهونة بالوضع الأمني السائد في منطقة الحجاز ومصر، فمتى ما عم الأمن والعدل في تلك المنطقتين كان لذلك أثره الكبير في تلك العلاقة .

- كانت لمكانة العلماء العلمية بالمقام الأول أثر في تكوين علاقة جيدة مع السلطتين المركزية والمحلية وإن اختلفت تلك العلاقة في العصر المملوكي الأول عنها في أواخر الدولة المملوكية، والتي كان لضعف الدولة واهتزاز كيانها الاقتصادي أثر في توتر تلك العلاقة .
- استقرار الأحوال العامة لمعظم العلماء بالحجاز خلال العصر المملوكي، خصوصا بعد أن أصبح هؤلاء تحت حماية السلطة المملوكية، والتي أخذت بمعاقبة كل من يتعرض العلماء بشر، فكان يحل به العذاب والعقاب الشديد، للإدراكهم بمكانة العلماء وتأثير وظائفهم في الوضع العام بالمنطقة .
- ضعف مكانة بعض العلماء في أواخر العصر المملوكي، من خلال تعدي بعض الأمراء المماليك عليهم، إما من أجل المال، أو محاسبتهم ان ظهر منهم قصور في تأدية مهامهم المنوطه بهم .
- إيمان الأشراف بتأثير العلماء سياسيا لحل بعض مشكلاتهم، واستخدامهم رسلا لتحقيق مطالبهم السياسية، الا أن ذلك لم يستمر طويلا حيث تغير الوضع في أواخر العصر المملوكي، فالدولة بعدما كانت تتحرى اختيار أعدل الأشراف وأصلحهم، أصبحت الحجاز يحكمها من لا يحكم الناس بالعدل فتأثر العامة ومنهم العلماء، الذين وقفوا أحيانا عاجزين عن القيام برفع الظلم عنهم وعن العامة .
- العلاقة بين العلماء والسلطتين لم تكن على وتيره واحده فقد مرت بمنعرجات عدة ما بين الاختلاف والتعاون وهذا شأن أي علاقة، ولكن يضل أن العلماء في تلك الفترة حافظوا على استقلاليتهم الدينية والعلمية من خلال ما قاموا به من دور فعال في الحياة العامة، ومع ذلك فإن دائرة العلماء لم تكن تتمحور حول الدين والعلم بل اتسعت لشمل السياسة والاقتصاد والاجتماع .

الهوامش :

(١) فائز علي بخيت، **العلاقة بين الفقهاء وسلاطين الدولة المملوكية** (مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، جامعة الموصل، المجلد ١٢، العدد ٤، ١٤٣٥هـ/٢٠١٣م)، ٦٤٥.

(٢) السابق، ٦٥٥.

(٣) تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، حج غير مرة وجاور، كان يكتب بمكة ويحدث، إلى جانب معرفته بأسرار التاريخ ومحاسنة، حدث ببعض تصانيفه ومروياته بمكة والقاهرة، توفي سنة ٨٤٥هـ/١٤٤١م. عاتق البلادي، **نشر الرياحين في تاريخ البلد الأمين**، (مكة المكرمة، دار مكة، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م) ١: ٥٢.

(٤) السابق، ١: ٥٢-٥٧.

(٥) محي الدين عبدالله بن عبدالظاهر بن نشوان السعدي، ولد بالقاهرة سنة ٦٢٠هـ، قاض وأديب ومؤرخ، له شعر جيد، توفي سنة ٦٩٢هـ. المقريزي، أحمد بن علي بن عبدالقادر المقريزي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م)، **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ - ١٩٩٧م)، ٢: ٢٤٣.

(٦) محمد بن عبدالوهاب بن محمد المغربي المالكي، ولي قضاء مكة إلى جانب الإفتاء وأقرأ الطلبة في الفقه، له نظم ونثر، كان من أكابر مكة، وحظي بمكانة عند صاحبها. السخاوي، محمد بن عبدالرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م)**التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة**، تحقيق: أسعد طرابزوني (مصر: دار نشر الثقافة، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)، ٣: ٦٥٩.

(٧) السابق، ٣: ٦٥٩.

(٨)عبدالعزيز بن عمر ابن فهد، عبدالعزيز بن عمر بن محمد المكي (ت ٩٢٢هـ/١٥١٦م .) **غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام**، تحقيق: فهيم شلتوت (مكة المكرمة: مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، ١٤٣٦هـ/٢٠١٤م)، ٣: ٤٣-٤٤.

(٩) ابن فهد، **غاية المرام**، ٢: ٤٥٣.

(١٠)عمر بن فهد، عمر بن فهد محمد المكي (ت٨٨٥هـ/١٤٨٠م .)**إتحاف الورى بأخبار أم القرى**، تحقيق: فهيم شلتوت (مصر: دار الجبل للطباعة، د.ت)، ٤: ٤١٧.

(١١) السابق، ٤: ٤٤١.

(١٢) السابق، ٤: ٥٠٦.

(١٣) السابق، ٤: ٥٨٠-٥٨٢.

(١٤) عمر بن أحمد بن محمد النفطي، ولد سنة ٨٠٢هـ/١٤٠٠م، وهو أحد شهود الحرم، اعتمد السمهودي مشاهداته وأخباره في كثير مما كتبه لثقته به. السخاوي، **التحفة اللطيفة**، ٣: ٣١٧.

(١٥) سليمان بن عزير بن هيازع بن هبة بن جماز الحسيني، أمير المدينة، تولى الحكم بها بعد عزل أميان بن مانع سنة ٨٤٢هـ/١٤٣٨م، واستمر بها إلى أن توفي سنة ٨٤٦هـ/١٤٤٢م. السخاوي، **التحفة اللطيفة**، ٢: ١٨٤.

(١٦) السابق، ٣: ٣١٧.

(١٧) ذكر السخاوي نقلًا عن ابن فرحون أنه ولي شهادة الحرم ووزارة أمير المدينة دون أن يذكر من ولاه وزارته من أمراء المدينة. السخاوي، **التحفة اللطيفة**، ٣: ٢٤٠.

(١٨) العيني، بدر الدين محمود العيني (ت٨٥٥هـ/١٤٨٠م) **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان**، تحقيق: محمد أمين (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م، ٣: ٣٧٣.

(١٩) ابن فهد، **إتحاف الورى**، ٣: ٥٤٨.

(٢٠) هو أحمد بن علي بن محمد الفاسي ولد بمكة، وتقدم في معرفة الوثائق والأحكام ودرس وحدث وأفتى، ولي مباشرة الحرم، كما تولى المدائح في النبي صلى الله عليه وسلم وفي أمراء مكة، توفي بمكة سنة ٨١٩هـ/١٤١٦م. السخاوي، **التحفة اللطيفة**، ١: ٢٠٦.

(٢١) السابق، ١: ٢٠٦.

(٢٢) محمد بن محمد بن عبدالمنعم البغدادي الأصل القاهري، ولد بالقاهرة سنة ٨٠١هـ، تولى القضاء بها، وكان الناس يقصدونه لقضاء حوائجهم، أقام بالدمينة نحو نصف شهر، وبمكة دون الشهرين، توفي سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م. السخاوي، **الضوء اللامع لأهل القرن التاسع** (بيروت: دار الجيل)، ٩: ١٣٤-١٣١.

(٢٣) السابق، ٩: ١٣١.

(٢٤) ابن فهد، **غاية المرام**، ٢: ٤٩١.

(٢٥) السابق، ٣: ٧٤.

(٢٦) السابق، ٣: ٢٢٢.

(٢٧) ابن فهد، **غاية المرام**، ٣: ١٥٥.

(٢٨) تمراز البكتمري، ولي نيابة الشام أكثر من مرة، عين شاد لبندر جدة، مات مقتولًا في اليمن سنة ٨٥٥هـ/١٤٥١م. السخاوي، **الضوء اللامع**، ٣: ٣٥.

(٢٩) محمد بن عبدالقوي بن محمد البجائي، شاعر نسابة له اشتغال بالتاريخ ومشاركة في كثير من العلوم، مدح أعيان مكة وأمراءها، مات بمكة سنة ٨٥٢هـ/١٤٤٨م. السابق، ٨: ٧١.

(٣٠) ابن فهد، **غاية المرام**، ٢: ٤٩٧.

(٣١) محمد بن بركات بن حسن بن عجلان أمير الحرمين والحجاز وحلي بن يعقوب وجازان، ولد سنة ٨٤٠هـ/١٤٣٦م، وتوفي في ٩٠٣هـ/١٤٩٨م. عمر بن فهد، عمر بن محمد بن فهد المكي، **الدر الكمين بذيل العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين**، تحقيق: عبدالملك بن دهيش (مكة المكرمة، مكتبة الأسدي، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م) ١: ١٠٣؛ ابن فهد، **غاية المرام**، ٢: ٥٠٦.

(٣٢) ابن فهد، **غاية المرام**، ٢: ٥٨٥.

(٣٣) السخاوي، **التحفة اللطيفة**، ١: ٣٩٦.

(٣٤) أبو بكر بن الحسين بن أبي حفص عمر المراغي المصري، نزيل المدينة، ولي قضاء الحرم المدني وخطابته وإمامته إلى جانب الإفتاء، عمل تاريخًا للمدينة سماه تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة. السخاوي، **الضوء اللامع**، ١١: ٢٨.

(٣٥) ابن فهد، **إتحاف الورى**، ٣: ٤٦٣؛ السخاوي، **الضوء اللامع**، ١١: ٢٨.

(٣٦) الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي (ت٨٣٢هـ/١٤٢٩م) **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين**، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م)٣: ٢٥٨؛ ابن فهد، **غاية المرام**، ٢: ١٣٥.

(٣٧) الجزيري، عبدالقادر بن محمد بن عبدالقادر الجزيري (ت٩٧٧هـ/١٥٦٩م)**درر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة**، تحقيق: محمد حسن إسماعيل (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م) ١: ٤٢٧.

(٣٨) المقريزي، **السلوك**، ٣: ٢١٢.

(٣٩) ابن فهد، **إتحاف الورى**، ٣: ٣٩٣.

(٤٠)ابن إياس، محمد بن أحمد بن إياس(ت ٩٣٠هـ /١٥٢٣م)**بدائع الزهور في وقائع الدهور**، تحقيق: محمد مصطفى (فيسبادن: الطبعة الأولى، دار فرانز شتاينر، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م)، ٤: ٤٨.

(٤١) الفاسي، **العقد الثمين**، ٣: ٤٤٧.

(٤٢) السابق، ٣: ٤٥١؛ ٥: ٢١٣.

(٤٣) ابن فهد، **إتحاف الورى**، ٣: ٢٣١.

(٤٤) الفاسي، **العقد الثمين**، ٢: ٣٦١؛ المقريزي، أحمد بن علي بن عبدالقادر المقريزي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) **درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة**، تحقيق: محمود الجليلي، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، د.ت)، ٣: ١٦٧.

(٤٥) ابن فرحون، أبو محمد عبدالله بن محمد بن فرحون(ت٧٩٩هـ/١٣٩٧م)**نصيحة المشاور وتسلية المجاور**، تحقيق: علي عمر، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م)

، ١٧٣؛ السخاوي، **التحفة اللطيفة**، ٢: ٣٨٤.

(٤٦) ابن فهد، **غاية المرام**، ٢: ١٤٣.

(٤٧) تعرض هذا الإمام للقتل بطريقة بشعة بتهمة أنه أخذ دراهم للأشراف القيامي، حيث بقروا بطنه بعد أن خرج من المسجد عائدًا لبيته، وهذه طريقة لا تمثل الحكم العادل. السخاوي، **التحفة اللطيفة**، ١: ٣١.

(٤٨) فهد خنافر بن عقيل بن وبير الحسني، أمير ينبع وليها بعد هجان بن محمد بن مسعود بعد سنة ٨٠٦هـ/١٤٠٣م، ثم انفصل بسبع بن هجان، قتل سنة ٨٧٥هـ/١٤٧٠م. السخاوي، **الضوء اللامع**، ٣: ٢٠٧.

(٤٩) مجان: بطن من بشر من بني عمر من مسروح من حرب. ابن فهد، **إتحاف الورى**، ٤: ٤٨٥، هامش ٣.

(٥٠) السابق، ٤: ٤٨٥.

(٥١) ابن فهد، **الدر الكمين**، ١: ٤٠٢.

(٥٢) ابن فهد، **إتحاف الورى**، ٤: ٦٤٦.

(٥٣) السخاوي، **التحفة اللطيفة**، ١: ٢٠٦.

(٥٤) ابن فهد، **إتحاف الورى**، ٤: ٥٢٤.

(٥٥) ابن فهد، **غاية المرام**، ٢: ٥٧٢.

(٥٦) السابق، ٣: ٢٨١.

(٥٧) السخاوي، **الضوء اللامع**، ١: ٥٩.

(٥٨) ابن فهد، **غاية المرام**، ٣: ٢١٤.

(٥٩) ابن حجر العسقلاني، **إنباء الغمر بأبناء العمر**، تحقيق: حسن حبشي (القاهرة: لجنة إحياء التراث، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م)، ١ : ٣٤٦

(٦٠) ابن فهد، **غاية المرام**، ٢: ١٥٢.

(٦١) السابق، ٣: ٢٠٩.

(٦٢)ابن فهد، **غاية المرام**، ٢: ٥٩٦.

(٦٣) السابق، ٢: ٥٩٧.

(٦٤) لم يتيسر لي الوقوف على ترجمة له من خلال المصادر التي أطلعت عليها. ابن فهد، **غاية المرام**، ٣: ٢١٦.

(٦٥) سعد بن محمد بن عبدالوهاب الزرندي القاضي الحنفي بالمدينة، ولي القضاء مع الحسبة معًا بعد والده، مات بالمدينة عن بضع وستين سنة. السخاوي، **الضوء اللامع**، ٣: ٢٥٣.

(٦٦) السخاوي، **الضوء اللامع**، ٣: ٢٥٣؛ **التحفة اللطيفة**، ٢: ١٣٧.

(٦٧) كان من المؤذنين ومؤدبًا، أدب معظم أولاد المجاورين، كان محببًا للأمراء والشرفاء مكرمًا لديهم، يقول الجد في صورة المزاح. السخاوي، **التحفة اللطيفة**، ٣: ٣٦٥

(٦٨) سارة شقلوف، **أثر المشارقة في الحياة العلمية والاجتماعية** في بلاد الحجاز خلال

العصر المملوكي، رسالة ماجستير، جامعة الفيوم، ٢٦٤؛ ابن فرحون، **نصيحة المشاور**، ٩٦.

(٦٩) أحمد بدرشيني، **أثر الأوقاف على الحياة الدينية والاجتماعية** في مكة والمدينة في العهد المملوكي، مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، ع١٣، ٢٠٠٥م، ٦٧.

(٧٠) السابق، ٦٨-٦٩.

(٧١) العيني، **عقد الجمان**، ١: ٤٨؛ ابن فهد، **إتحاف الورى**، ٣: ٩٧.

(٧٢) ابن حبيب، حسن بن عمر بن الحسن ابن حبيب (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م)**تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه**، تحقيق: محمد أمين راجعه سعيد عاشور (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م)، ٢: ٤٥؛ العيني، **عقد الجمان**، ٥: ٣٧٣.

(٧٣) ابن حبيب، **تذكرة النبيه**، ٢: ٩٩.

(٧٤) ابن فهد، **إتحاف الورى**، ٣: ١٩٨.

(٧٥) السابق، ٣: ٥٢١.

(٧٦) السابق، ٣: ٦٣٤.

(٧٧) محي الدين عبد القادر بن شيخ العيدروس، **النور السافر** عن أخبار القرن العاشر، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م) ١٦-١٧.

(٧٨) راشد القحطاني، **أوقاف السلطان الأشرف شعبان** (الرياض، مطبوعات مكتبة الملك فهد، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م)، ١١٥؛ أحمد بدرشيني، **أثر الأوقاف على الحياة الدينية والاجتماعية في مكة والمدينة**، (مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، العدد ١٣، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م) ٧٩.

(٧٩) الفاسي، **العقد الثمين**، ٢: ١٨-٢٤.

(٨٠) الفاسي، **العقد الثمين**، ٢: ٣٦١؛ المقريزي، **درر العقود**، ٣: ١٦٧.

(٨١) ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن حجر (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م)، **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، تحقيق : محمد عبد المعيد ضان (الهند، مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م)، ٢: ١٢.

(٨٢) في عام ٨٤٣هـ/١٤٣٩م أنكر القان معين الدين شاه رخ ملك المشرق على الأشرف

برسباي ما كان يأخذه بجدة من التجار الواردين إليها من الهند والصين من العشور، معتبرًا أن ذلك من المكس المحرم أخذه، فكتب بعض من الفقهاء فتوى تتضمن جواز أخذ السلطان لهذه الأموال لحاجته في صرفه على عسكر يبعث به إلى مكة لإقرار الأمن هناك. المقريزي، **السلوك**، ٧: ٤٤٩.

(٨٣) السخاوي، **الضوء اللامع**، ١: ٥٩.

(٨٤) البقاعي، إبراهيم بن حسن البقاعي(ت٨٨٥هـ/١٤٨٠م)**عنوان الزمان بتراجم الشيوخ والأقران**، تحقيق: حسن حبشي (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م)، ٤: ١٥٤.

(٨٥) محمد بن محمد بن عبدالمنعم القاهري، ولد بالقاهرة سنة ٨٠١هـ/١٣٩٩م، ولي قضاء العسكر والإفتاء وتدريس الفقه بعد والده، دخل مكة والمدينة، وأقام بمكة نحو شهرين، والمدينة نحو نصف شهر، مات بمصر سنة ٨٥٧هـ/١٤٥٣م. السخاوي، **الضوء اللامع**، ٩: ١٣١.

(٨٦) نوال الشريف، **الأوضاع الاجتماعية** ومهنهم وحرفهم وآثارهم على الحياة العامة خلال العصر المملوكي (رسالة ماجستير : جامعة أم القرى، ١٤٤١هـ/٢٠٢٠م) ١٠٣.

(٨٧) ابن فهد، **إتحاف الورى**، ٣: ٢٠٠؛ نوال الشريف، **الأوضاع الاجتماعية**، ١٠٤.

(٨٨) ابن إياس، **بدائع الزهور**، ٣: ٩٣.

(٨٩) علي عبد القادر الطبري(ت ١٠٧٠هـ/١٦٦٠م)، **الأرج المسكي في التاريخ المكي وتراجم الملوك والخلفاء**، تحقيق : أشرف أحمد جمال (مكة المكرمة، المكتبة التجارية، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م)، ٢٨٠؛ نوال الشريف، **الأوضاع الاجتماعية للعلماء**، ١٠٤-١٠٥.

(٩٠) السخاوي، **الضوء اللامع**، ٩: ٢٩١.

(٩١) ابن بطوطة، محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم بن بطوطة الطنجي (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م) **رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار** (دار الشرق العربي، د.ت) ١: ٩٣.

(٩٢) زبيري بن قيس بن ثابت بن نعير بن منصور الحسيني أمير المدينة، وليها بعد ابن عمه أميان بن مانع سنة خمس وخمسين، ثم انفصل في آخر سنة خمس وستين بزهير

بن سليمان بن هبة بن جماز بن ابن منصور، ثم سافر إلى مصر طالبًا للإمرة ففوض الأمر في المدينة وينبع وسائر الحجاز لصاحب مكة. السخاوي، **الضوء اللامع**، ٣: ٢٣٢.

(٩٣) السخاوي، **التحفة اللطيفة**، ٢: ٨١.

(٩٤)الخزرجي، علي بن الحسن بن أبي بكر(ت٨١٢هـ/١٤٠٩م)**العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية**، تحقيق : محمد بن علي الأكوع (صنعاء، مركز الدراسات والبحوث اليمني، بيروت، دار الآداب، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م): ٣٥٤.

(٩٥) عفاف الشهري، **المجاورون الشاميون وأثرهم في الحياة العلمية في مكة والمدينة خلال العصرين الأيوبي والمملوكي** (رسالة ماجستير: جامعة الملك خالد، ١٤٣٦-١٤٣٧هـ/٢٠١٥-٢٠١٦م)، ١٤٤.

(٩٦) محمد بن مسعود بن صالح الزواوي، مكي المولد، تردد في التجارة على عدد من المدن كالقاهرة وسواكن حتى أثرى، عرف بعلمه ومعرفته حتى إنه أجاز للسخاوي، توفي بمكة سنة ٨٥٩هـ/١٤٥٥م. السخاوي، **الضوء اللامع**، ١٠: ٥٠.

(٩٧) Richard Mortel (The Mercantile Community Of Mecca during the Late Mamluk Period (Royal Asiatic Society ,1994)29

(٩٨) الفاسي، **العقد الثمين**، ٢: ٢٦١؛ ابن فهد، **إتحاف الورى**، ٣: ٣١٥؛ **غاية المرام**، ٢: ٢٤٤.

(٩٩) الفاسي، **العقد الثمين**، ٥: ١٩٢.

(١٠٠) النجم محمد بن عبدالوهاب بن محمد المكي، قاضي قضاة المذهب المالكي، ولد سنة ٨٥١هـ/١٤٤٧م بالمدينة المنورة، ولي قضاء المدينة ثم قضاء مكة، توفي أثناء عودته من القاهرة سنة ٩١٨هـ/١٥١٢م. السخاوي، **التحفة اللطيفة**، ٣: ٦٥٩.

(١٠١) ابن فهد، **بلوغ القرى**، ٣: ١٦١٨.

(١٠٢) بندر الهمزاني، **أثر السلاطين والأمراء والأعيان**، ٤٢١.

(١٠٣) السابق، ٤٨٥-٤٨٦.

(١٠٤) السخاوي، **الضوء اللامع**، ٩: ٤١.

(١٠٥) عبادة بن علي بن صالح الزرندي، ولد بزرزرا من قرى مصر، انتقل إلى مكة سنة ٨٢٠هـ/١٤١٧م، لازم بها الاشتغال بالعلوم حتى برع في الفقه، والعربية، تصدى للتدريس والإفتاء، ووصف بأنه من جلة العلماء، عين قاضيًا للمالكية، توفي بمصر سنة ٨٤٦هـ/١٤٤٢م. السخاوي، **الضوء اللامع**، ٤: ١٦.

(١٠٦)السخاوي، **الضوء اللامع**، ٤: ١٦.

(١٠٧) ابن إياس، **بدائع الزهور**، ٥: ٩٥.

(١٠٨) العيدروس، **النور السافر**، ٥٥.

(١٠٩) سارة شقلوف، **أثر المشارقة**، ٢٦.

(١١٠) قاضي مكة وخطيبها ومفتيها، ولد بمكة سنة ٧٥١هـ/١٣٥٠م، ولي عدة وظائف منها التدريس بعدة مدارس كالمجاهدية والغياثية، وبعض المدارس الرسولية بمكة، توفي سنة ٨١٧هـ/١٤١٤م. الفاسي، **العقد الثمين**، ٢: ٢٠٢؛ بندر الهمزاني، **أثر السلاطين والأمراء والأعيان**، ٤٨٤.

(١١١) يلبغا بن عبدالله الخاصكي القصر الناصري العمري، صارت إليه الرئاسة بمصر في عهد السلطان الأشرف شعبان، مات مقتولًا سنة ٧٦٨هـ/١٣٦٧م.

(١١٢) أحمد بن محمد بن محمد الصاغاني، تولى عدة وظائف كالقضاء والإفتاء والتدريس، كما ناب في العقود بمكة، توفي سنة ٨٢٥هـ/١٤٢٢م. الفاسي، **العقد الثمين**، ٣: ١٠٧؛ السخاوي، **التحفة اللطيفة**، ١: ٢٥٠؛ **الضوء اللامع**، ٢: ١٧٩؛ بندر الهمزاني، **أثر السلاطين والأمراء**، ٤٨٤.

(١١٣) محمد بن محمد بن سعيد الصاغاني، أحد مجاوري المدينة قدم إليها وجلس يدرس ويفتي ويتاجر إلى أن حصل بينه وبين أميرها جماز بن منصور منافرة فرحل عنها إلى مكة، وتولى تدريس الحنفية بدرس يلبغا سنة ٧٦٣هـ/١٣٦٢م. الفاسي، **العقد الثمين**، ٢: ٣٦١؛ عبدالحي الطالبي، **الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام المسمى بـ (نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر)** (بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٠ هـ/١٩٩٩م)، ٢: ٢٠٢.

(١١٤) سيف الدين أرغون شاه بن عبدالله الدوادار الناصري، تولى نيابة السلطنة بمصر للناصر محمد قلاوون نحو ١٦سنة، ونيابة حلب نحو ٤سنوات، توفي سنة

٧٣١هـ/١٣٣١م. ابن كثير، إسماعيل بن عمر ابن كثير (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م)**البداية والنهاية** (بيروت: مؤسسة المعارف للطباعة والنشر ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م)، ٥ : ٣٠٢٢

(١١٥) بندر الهمزاني، **أثر السلاطين والأمراء**، ٤٨٥.

قائمة المصادر والمراجع

أولا: المصادر

ابن إياس، محمد بن أحمد بن إياس (ت ٩٣٠هـ /١٥٢٣م) **بدائع الزهور في وقائع الدهور**، تحقيق: محمد مصطفى (فيسبادن: الطبعة الأولى، دار فرانز شتاينر، ١٣٩٥هـ/١٩٧٥م)

ابن بطوطة، محمد بن عبدالله بن محمد بن إبراهيم بن بطوطة الطنجي (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م) **رحلة ابن بطوطة المسماة تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار** (دار الشرق العربي، د.ت)

البقاعي، إبراهيم بن حسن البقاعي (ت٨٨٥هـ/١٤٨٠م) **عنوان الزمان بتراجم الشيوخ والأقران**، تحقيق: حسن حبشي (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م)

الجزيري عبدالقادر بن محمد بن عبدالقادر الجزيري (ت٩٧٧هـ/١٥٦٩م) **درر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة**، تحقيق: محمد حسن إسماعيل (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م)

ابن حبيب، حسن بن عمر بن الحسن ابن حبيب (ت٧٧٩هـ/١٣٧٧م)**تذكرة النبيه في أيام المنصور وبنيه**، تحقيق: محمد أمين راجعه سعيد عاشور (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م)

ابن حجر العسقلاني، أحمد بن علي بن محمد بن محمد بن حجر (ت٨٥٢هـ/١٤٤٨م)

الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، تحقيق : محمد عبد المعيد ضان (الهند، مجلس دائرة المعارف العثمانية، ١٣٩٢هـ/١٩٧٢م)

إنباء الغمر بأبناء العمر، تحقيق: حسن حبشي (القاهرة: لجنة إحياء التراث، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م)

الخزرجي، علي بن الحسن بن أبي بكر (ت٨١٢هـ/١٤٠٩م) العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية، تحقيق : محمد بن علي الأكوع (صنعاء، مركز الدراسات والبحوث اليمني، بيروت، دار الآداب، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م)

السخاوي، محمد بن عبدالرحمن السخاوي (ت ٩٠٢هـ/١٤٩٦م)

التحفة اللطيفة في تاريخ المدينة الشريفة، تحقيق: أسعد طرابزوني (مصر: دار نشر الثقافة، ١٣٩٩هـ/١٩٧٩م)

الضوء اللامع لأهل القرن التاسع (بيروت: دار الجيل)

الطبري، علي عبد القادر (ت ١٠٧٠هـ/١٦٦٠م)، **الأرج المسكي في التاريخ المكي وتراجم الملوك والخلفاء**، تحقيق : أشرف أحمد جمال (مكة المكرمة، المكتبة التجارية، ١٤١٦هـ/١٩٩٦م

عبدالعزيز بن عمر ابن فهد، عبدالعزيز بن عمر بن محمد المكي (ت ٩٢٢هـ/١٥١٦م .) **غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام**، تحقيق: فهيم شلتوت (مكة المكرمة: مركز البحث العلمي وإحياء التراث الإسلامي، ١٤٣٦هـ/٢٠١٤م)

عمر بن فهد، عمر بن فهد محمد المكي (ت٨٨٥هـ/١٤٨٠م .)

إتحاف الورى بأخبار أم القرى، تحقيق: فهيم شلتوت (مصر: دار الجبل للطباعة، د.ت)

، **الدر الكمين بذيل العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين**، تحقيق: عبدالملك بن دهيش (مكة المكرمة، مكتبة الأسدي، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م)

العيني، بدر الدين محمود العيني (ت٨٥٥هـ/١٤٨٠م) **عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان**، تحقيق: محمد أمين (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، ١٤٣١هـ/٢٠١٠م

الفاسي، تقي الدين محمد بن أحمد الفاسي (ت٨٣٢هـ/١٤٢٩م) **العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين**، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا (بيروت: دار الكتب العلمية، ١٩٩٨م)

ابن فرحون، أبو محمد عبدالله بن محمد بن فرحون(ت٧٩٩هـ/١٣٩٧م) **نصيحة المشاور وتسلية المجاور**، تحقيق: علي عمر، (القاهرة: مكتبة الثقافة الدينية، ١٤٢٧هـ/٢٠٠٦م)

ابن كثير، إسماعيل بن عمر ابن كثير (ت٧٧٤هـ/١٣٧٢م) **البداية والنهاية** (بيروت: مؤسسة المعارف للطباعة والنشر ١٤٣٠هـ/٢٠٠٩م)

محي الدين عبد القادر بن شيخ العيدروس، **النور السافر** عن أخبار القرن العاشر، (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤٠٥هـ/١٩٨٥م

المقريزي، أحمد بن علي بن عبدالقادر المقريزي (ت ٨٤٥هـ/١٤٤١م) **السلوك لمعرفة دول الملوك**، تحقيق: محمد عبدالقادر عطا (بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م)

درر **العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة**، تحقيق: محمود الجليلي، (بيروت: دار الغرب الإسلامي، د.ت)

ثانيا : المراجع

راشد القحطاني، أوقاف السلطان الأشرف شعبان (الرياض، مطبوعات مكتبة الملك فهد، ١٤١٤هـ/١٩٩٤م)

عاتق البلادي، **نشر الرياحين في تاريخ البلد الأمين**، (مكة المكرمة، دار مكة، ١٤١٥هـ/١٩٩٤م)

عبدالحي بن فخر الدين بن عبدالعلي الحسني الطالبي (ت ١٣٤١هـ)، **الإعلام بمن في تاريخ الهند من الأعلام المسمى بـ (نزهة الخواطر وبهجة المسامع والنواظر)** (بيروت: دار ابن حزم، ١٤٢٠ هـ/١٩٩٩م)

ثالثا: الرسائل الجامعية

سارة شقلوف، **أثر المشارقة في الحياة العلمية والاجتماعية** في بلاد الحجاز خلال العصر المملوكي، رسالة ماجستير، جامعة الفيوم،

عفاف الشهري، **المجاورون الشاميون وأثرهم في الحياة العلمية في مكة والمدينة خلال العصرين الأيوبي والمملوكي** (رسالة ماجستير: جامعة الملك خالد، ١٤٣٦-١٤٣٧هـ/٢٠١٥-٢٠١٦م)

نوال الشريف، **الأوضاع الاجتماعية** ومهنهم وحرفهم وآثارهم على الحياة العامة خلال العصر المملوكي (رسالة ماجستير : جامعة أم القرى، ١٤٤١هـ/٢٠٢٠م)

رابعًا: الدوريات

أحمد بدرشيني، **أثر الأوقاف على الحياة الدينية والاجتماعية في مكة والمدينة** (مجلة مركز بحوث ودراسات المدينة المنورة، العدد ١٣، ١٤٢٦هـ/ ٢٠٠٥م)

فائز علي بخيت، **العلاقة بين الفقهاء وسلاطين الدولة المملوكية** (مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، جامعة الموصل، المجلد ١٢، العدد ٤، ١٤٣٥هـ/٢٠١٣م)،

رابعا: المراجع الأجنبية

Richard Mortel (The Mercantile Community Of Mecca during the Late Mamluk Period (Royal Asiatic Society ,1994)